عبدالفتاح أحمد حيدرة
Haidrh77@hotmail.com

أحلام مستغانمي

في منتصف العام 2002 أشارت علي زميلة صحفية جزائرية واسمها وريدة ملياني بقراءة رواية "ذاكرة الجسد". كان قد مر على صدور الرواية نحو تسع سنوات. بحثت عن الرواية مجاملة للزميلة، فلا يعقل أن تنصحك أنثى بلهجة مغاربية قراءة رواية ثم تفوّت ذلك. بدأت في قراءة الصفحة الأولى مساءً، وفي اليوم التالي كنت غائباً عن العمل لأني سهرت في قراءة الرواية حتى الصباح. كنت أعيد قراءة بعض الجمل والصفحات أكثر من مرة، ومن ذلك اليوم أصبت بمس يسمى أحلام مستغانمي استمر معي بعد ذلك لشهور عدة ولا تزال بعض النوبات تصيبني بين فترة وأخرى.

كانت الرواية من ذلك النوع الذي تعتقد أنك كتبته في حياة سابقة. ذلك النص الذي يحلم المرء بكتابته ثم لا يجد من الكلمات ما يليق به، وفجأة تجد أن هناك من كتب بالنيابة عنك أجمل ما أردت. وكنت في كل مرة ألتقي فيها بزميلي ناصر أخرج له بعض الرسائل التي كتبتها في زمن ما لأنثى خيالية، ثم أقرأ له بعض الجمل وأحياناً سطوراً كاملة في الرواية بدت كما لو أنها نسخت من تلك الرسائل.

في الواقع كنت مرعوباً من فكرة أن يقع في يدك كتاب أو رواية، لا يسعك إلا أن تؤمن بكل ما فيه دون أن تدري أنك في ذلك الإيمان تستولد الكثير من العواصف والزوابع بداخلك، وتواجه الكثير من القناعات التي عشت معها زمناً طويلا، وتكتشف إلى أي مدى كنت مخدوعاً بالكثير من النصوص الزائفة والسخيفة التي اعتقدت لفترة أنها جديرة بالتأمل.

باختصار، كنت لفترة ما مجنوناً بتلك النصوص واللغة التي كتبت بها، ثم ذهبت إلى أبعد من ذلك، بدأت أصنف النساء والرجال الذين أعرفهم وفق درجة إعجابهم بالرواية وإيمانهم بأفكار صاحبتها، وفي مرحلة تالية من الجنون بدأت تلك اللغة العاطفية والانقلابية تتسرب إلى النصوص الصحفية التي أكتبها، وهي في العادة نصوصاً لا تحتمل تلك اللغة المشحونة بالعاطفة والثورة والجنون، ولم يكن ذلك يعجب رؤسائي في العمل أبداً، وربما لن تعجب الفقرة التالية زوجتي (أحلام) التي ما أن عرف الأصدقاء باسمها حين خطبتها قبل 7 سنوات حتى تأكدوا أنني مجنون تماماً بكل شيء يرتبط بأحلام مستغانمي.

في منتصف العام 2004 استضافت بروين حبيب في أول حلقة لبرنامجها على قناة دبي أحلام مستغانمي، وما إن انتهت الحلقة قرب منتصف الليل حتى كنت واقفاً عند بوابة تلفزيون دبي أترجى حارس البوابة أن يسمح لي بالدخول. فهمت من بعض من مروا بي في البوابة أن التصوير كان في استوديو خارج التلفزيون، وفي صباح اليوم التالي استعنت بكل من أعرف حتى وصلت إلى رقم هاتف مرافقتها في دبي. اتصلت بها وشرحت لها مرضي بأحلام وأني قد تعبت وأريد الشفاء. ضحكَتْ، ودلتني على عنوان الفندق الذي تنزل فيه أحلام، وفي الطريق إلى الفندق اشتريت قلم حبر بدولار تقريباً والجزء الأول والثاني من ثلاثيتها "ذاكرة الجسد" و "فوضى الحواس". وصلت الفندق ولم تكن هناك فانتظرت.

بعد نحو أربع ساعات دخلت أحلام مستغانمي، وصادف قدومها زفة عريس وعروسة إلى الفندق، وكانت أحلام ترتدي فستاناً أبيض، نهضت من على الكرسي كالمسحور وتقدمت منها وأنا لا زلت مفتوناً بلغتها، "دائماً لا تأتين إلا في مواكب الأعراس". قلت ذلك واستلمت يدها الممتدة باستغراب لمصافحتي، أضفت: "أريد أن أشفى منك". ابتسمت باندهاش، فعرفتها بنفسي قبل أن أجلس على الكرسي المقابل لمقعدها في استقبال الفندق.

اليوم وبعد ست سنوات من ذلك اللقاء، أتذكر ضحكتها وأنا أطلب منها أن تقبل ذلك القلم البسيط مني. كنت أعرف أن الراحل غازي القصيبي قد أهدى لها قلماً كتب به إحدى رواياته، وأهداها آخرون أقلاماً ذهبية. قلت لها: "هذا القلم لم يكتب به غازي القصيبي روايته، وأرخص من أقلام الذهب، لكنه سيكسب قيمته بمجرد أن تكتبي به، ولو إهداء لي على غلاف الرواية". كنت أتجاهل في تلك اللحظة جملتها الرائعة: " الغرباء وحدهم من نكتب لهم إهداء، أما الذين نحبهم فمكانهم ليس في الصفحة الأولى وإنما بين صفحات الكتاب".

عندما ودعتها في ذلك اليوم، شعرت بالخفة، وتحررت كثيراً من ثقل سطوتها علي، اكتشفت أنها تتحدث وتأكل وتشرب كما نفعل بالضبط، وأنه بالإمكان مناقشة ما تقوله في رواياتها وأن نختلف معها أيضاً. قبل ذلك اليوم لم يكن لي الخيار في ذلك، ولا حتى التوقف عن كتابة عشرات الرسائل العشقية الشاهقة إلى نساء كثيرات لم تكن بينهن امرأة حقيقية واحدة.

أكتب الآن بشعور لذيذ عن امرأة كأنها لم تكن تكتب إلا لي، وبودي أن أستمر في ذلك وكأني لا أكتب إلا لها، غير أن الوقت رمضان، والقارئ ربما لا تعنيه مستغانمي أو من التقى بها وكيف، غير أني فضلت أن أكتب في رمضان عن الأشخاص الذين أحب أن أسمع لهم، وإن اختلفت معهم، سواء كان الشيخ سلمان العودة أو أحلام مستغانمي، ويستطيع القارئ التعرف على الكاتبة ورواياتها والجوائز التي نالتها والجدل الذي أثير حولها بزيارة الموقع الإلكتروني للكاتبة أو يترك "لجوجل" تعريفه بذلك.

نصيحتي للقارئ أن يقرأ "ذاكرة الجسد"، ولا يشاهد المسلسل الذي يعرض في رمضان بالاسم نفسه، حتى وإن كانت الحسناء الجزائرية أمل بوشوشة تقوم بدور البطولة فيه، ورأيي أن الرواية الثانية "فوضى الحواس" أكثر جموحاً من "ذاكرة الجسد" والأفضل للقارئ أن يكمل الثلاثية بالرواية "عابر سرير" التي كتب على غلافها الأخير الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بلة: "إنّ أحلام مستغانمي شمس جزائرية أضاءت الأدب العربيّ، لقد رفعت بإنتاجها الأدب الجزائري إلى قامة تليق بتاريخ نضالنا. نفاخر بقلمها العربيّ، افتخارنا كجزائريّين بعروبتنا".

الاشتراكي والإمام والأمن

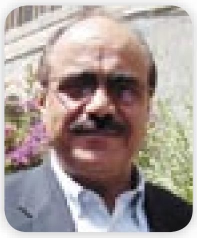

علي العمراني

بعد حوالي ساعتين من تعرض وزير العدل السابق عبد الواسع سلام لمحاولة اغتيال أصيب فيها في إبريل 1992، كنت مع عدد من وجهاء البيضاء في منزل الأستاذ علي سالم البيض نائب رئيس مجلس الرئاسة في القصر الجمهوري بناء على موعد مسبق رتبه الدكتور محمد مسدوس نائب رئيس الوزراء حينذاك.. بدا البيض في ذلك اللقاء القصير واجماً متألماً. سألناه هل تم القبض على الجناة؟ فأجاب: "باين ما حد يقبض على حد هنا!".. وعادت بي الذاكرة في تلك اللحظات إلى حوادث سابقة، منها مقتل أحد وجهاء المناطق الوسطى في وسط العاصمة صنعاء في وضح النهار في أواخر الثمانينات، حيث بدا وكأن أجهزة الأمن غير معنية بالأمر بجد ومسئولية. كان ذلك صادماً بالنسبة إلي أنا العائد للتو من اغتراب دام أكثر من عشر سنوات في بلد مجاور تأخذ الدولة فيه قضايا الأمن والسكينة العامة مأخذ الجد والحزم..

موازنات متزايدة وأمن متناقص!

في عام 2000 ضمنت لجنة الموازنة في مجلس النواب مشروع تقريرها مقارنة بين تسارع وارتفاع نسب الجرائم بأنواعها ومنها الحروب القبلية وبين تزايد الموازنات المخصصة لحفظ الأمن سنة إثر أخرى.. وبدا أن ما ضمناه في مشروع التقرير لم يرق لأحد زملائنا في اللجنة، وأبدى اعتراضا لم نقبله، فما كان منه إلا أن انسل من اللجنة لإبلاغ الأخ يحيى الراعي الذي كان حينذاك نائبا لرئيس المجلس، وقدم إلى اللجنة على الفور، يصحبه عدد كبير من الحراس العسكريين المسلحين، وأخذ مكاناً وتصفح التقرير بسرعة، وبادر بالقول: يا علي.. ما الذي أبقيت لعلي صالح عباد مقبل، (أمين الحزب الاشتراكي المعارض حينذاك، وقد ألقى خطاباً نارياً ساخطا في ذلك الوقت)؟... "ما حد يقول لأمه شومة... المستثمرون سينفرون ويفرون"... وأضاف ساخرا كعادته: "... أنتم يا أهل البيضاء آخر من يتكلم عن الأمن... أنتم " تتخارجوا" في "العيوب" و"العتوب"، وتتركون الدم كنز وتدخرونه للأجيال القادمة وكأنه مكسب، وتوصي به الأم أولادها!.. أما احنا إذا حصلت مشكلة نتخارج...". ومما أجبت به عليه: "لقد أحصينا أكثر من مأتي حرب عشائرية في العام المنصرم وسقط جراء ذلك عشرات القتلى من المواطنين، وأنت يا أستاذ يحيى قدمت إلى اللجنة الآن يصحبك كل هذا العدد من المرافقين، عندما تشعر يوما أنه يمكنك التحرك دون مرافقين حتى داخل المجلس، بل ويمشي كل منا في الشوارع والطرقات دون مرافقين استنادا إلى الأمن والعدل الذي توفره الأجهزة المعنية لكل الناس، وعندما يشعر المجرمون أن هناك دولة مسئولة حازمة تتعقبهم وتلاحقهم أينما ذهبوا سيتاح لنا أن نتحدث حينذاك عن الأمن على نحو مختلف"...

سياسات خاطئة وقيادات فاشلة

أمام إصرار أعضاء لجنة الموازنة، قُدّم التقرير إلى المجلس دون تغيير يذكر، غير أن الأوضاع الأمنية التي توخينا تغييرها إلى الأفضل قبل عشر سنوات، تدهورت منذ ذلك الحين نحو الأسوأ.. وقد حدث ذلك لأن الأساليب والسياسات بقيت كما هي تقريبا دون تغيير، وظل كثير من المعنيين بالأمن والأمر في جهات عدة لم يتغيروا، وواضح أن مفاهيمهم وقناعاتهم عن أشياء كثيرة، ترتبط بالحكم والإدارة والقيادة والمسئولية والسياسة، بقيت ثابتة هي الأخرى لم تتغير، أيا كان خطرها وخطؤها وبعدها عن الصواب والحق، وهذا مما فاقم الاختلالات وأدى إلى تدهور الحالة الأمنية حتى أخذت طابع حروب أهلية في جهات عدة من البلاد.. وعندما كان يقتتل الناس في مناطق رداع والجوف وعمران ومارب وغيرها، فغالبا لا تأبه أجهزة الدولة بالقيام بواجباتها وتتلكأ قوات الأمن في التدخل توفيرا لمخصصات التنقل والوقود التي غالبا ما تذهب لجيوب القادة، ويتعلل كثير من المسئولين بترديد كلمة "ثأر!".. وكأنهم لا يدركون أن لا معنى لوجود الدولة التي يمثلونها في ظل تفشي الثأر.. ومن المساوئ المؤسفة أن مناطق كثيرة في الجنوب استعادت زخم العنف والثأر والإهمال بعد حرب 1994 مثل شبوة وأبين، وعاد الاقتتال من جديد، حتى داخل القرية الواحدة.. ونتيجة لذلك انتشر السلاح والفوضى وصارت مناطق كثيرة ملاذاً للمتطرفين، وتهيأ مناخ العنف لفئات خطرة تهدد أمن البلاد واستقرارها بشكل غير مسبوق في تاريخ اليمن الحديث. وقد ذكرت صحيفة الشارع في عددها الأخير أن القاعدة يعرضون في شوارع لودر على الملأ أفلاماً لمعاركهم وبطولاتهم. وساعة كتابة هذا الموضوع أفادت التقارير عن مقتل ثمانية عسكريين في نقطة في زنجبار. وقبلها بأيام قتل ثلاثة عشر عسكريا دفعة واحدة في لودر، وقتل آخرون من قبل في ظروف مشابهة. أما الحوثيون فبعد أن أحكموا السيطرة على أكثر صعدة وحرف سفيان وكثير من الجوف، هاهو مندوبهم الفيشي يعلن من قطر أن قضيتهم ليست صعدة وحدها وإنما أكثر محافظات الشمال.

علي القاضي داعية سلام

حينما كنت في الجوف في شهر مارس الماضي ضمن اللجنة الوطنية لإحلال السلام، أذكر أن الأخ علي عبدربه القاضي الذي فقد ثلاثة من أبنائه في حوادث قتل متفرقة، سأل الشيخ الجيشي عن إخوته الكبار الذين قُتلُوا، وسألت أين قُتلُوا؟ فقيل: في اقتتال عشائريٍ. تذكرت حينئذ حالات أخرى مشابهة أعرف أصحابها جيدا، وأحسست من جديد أن الدولة تبدو كمن لا يأبه بمن يعيش أو يموت في مناطق كثيرة ومنها الجوف، ولولا ارتفاع خصوبة النساء اليمنيات وزيادة نسبة المواليد لقدر لعائلات أن تنقرض من الوجود بسبب الاحتراب الأهلي.. وليس أمام المرء إلا أن يشعر بالمرارة إزاء دولة لا تتعامل بمسؤولية كافية تجاه أمن مواطنيها في مناطق مثل الجوف.. وتساءلت لو أن الجوف تابعة لدولة أخرى مثل سوريا أو تونس أو السعودية أو غيرها، هل كان يمكن أن تكون مهملة وبائسة إلى ذلك الحد؟ كان ذلك مما يجول بخاطري ونحن نعبر الطريق بين حزم الجوف والجبل الأسود في حرف سفيان، جيئة وذهاباً، مع أعضاء اللجنة الوطنية ومنهم ناجي الظليمي الذي سبق وأصيب برصاص متقطعين هو وولده في الجوف عندما كان محافظا لها، وعلي القاضي الذي كثيراً ما كان يردد بيت شعر عربي مشهور سبق واستشهد به علي سالم البيض في أول خطاب له في ميدان السبعين قبيل تحقيق الوحدة:

"إذا اقتتلت يوما وسالت دماؤها.. تذكرت القربى فسالت دموعها".

وظل القاضي يتحدث كثيراً عن ضرورة حقن دماء اليمنيين. وعلق فخامة الرئيس على كلام من ذلك القبيل طرحه القاضي في أحد اجتماعات اللجنة مع الرئيس "ما شاء الله، علي القاضي داعية سلام!". فكان رد القاضي "ما ندخل حرب إلا وأنتم الذين تدفعونا إليها".. وأيد القاضي بقوة مقترحاً طرحته على الرئيس في أول اجتماع للجنة برئاسته، وفحواه ضرورة أن يتضمن سلام صعدة صلحاً شاملاً لجميع الأطراف ينهي جميع ثارات الحرب ويأمن فيه الحوثيون وغيرهم بصفة دائمة..

تلاشي هيبة الدولة

على كثرة مساوئ حكم آل حميد الدين، غير أن القاتل كان لا تقلّه أرض ولا تظله سماء. وكذلك الحال بالنسبة لحكومة الحزب الاشتراكي في الجنوب، حيث تم بسط الأمن هناك بعد أن كانت الفوضى والاقتتال والثأر من طبيعة الأشياء وطريقة حياة في عهد الاستعمار..

يقول هارولد انجرامز في كتابه "اليمن: الأئمة والحكام والثورات": "إن هناك مفارقتين شدتا انتباهي في أثناء جولتي القصيرة في اليمن (1941)، إحداهما تلك المفارقة بين الصراع والنزاعات التي كانت في الماضي وبين النظام المستتب في الوقت الحاضر. والمفارقة الأخرى بين السلام والاستقرار في المملكة وبين الافتقار إليه في المحمية".. ويضيف: "تأكدت لي المفارقة الثانية التي تحدثت عنها آنفا بشكل قوي وواضح من خلال مشاهداتي المتكررة للرجال والنساء وهم يعملون في الحقول دون أن يخطر ببالهم أنهم يمكن أن يتعرضوا للإغارة من قبل جيرانهم.. فلقد عرفت المحمية عن كثب لمدة كافية بحيث أصبحت متعودا أكثر على أن أرى المناطق الزراعية محصورة في الأماكن القريبة جدا من التجمعات السكانية المحصنة التي يمكن اللجوء إليها والاحتماء بها عند سماع طرقعة أول طلقة رصاص".. وأشار إلى أن كثيراً من الأراضي التي كانت صالحة للزراعة منذ زمن، في مناطق عدة في الجنوب هجرت وتصحرت نتيجة للخوف واضطراب الأمن.. وأضاف: "في اليمن يمكن حتى للمسافر المتواضع المكانة الاجتماعية أن ينتقل وحيدا من مكان إلى آخر دون خوف، أما في المحمية فإنه عادة ما يكون من الضروري أن يصطحب المرء معه مرافقاً أشبه بفيزا حية تعطي تأكيدا أن المسافر تحت حماية القبيلة التي يتم العبور في أراضيها..".

في حديث مع الزميل النائب المرحوم الشيخ ناجي أبو راس قال أنه حدثه أحد أعيان منطقتهم "ذو محمد" بأنه كان جالسا في عهد الإمامة أمام منزله في برط ذات يوم يشرب القهوة، فإذا بشخص قادم لا يزال على بعد منه، وتأمل فيه لبعض الوقت، وعندما اقترب منه وتيقن أنه عسكري، سقط كأس القهوة من يده! لكن الشخص نفسه قال لأبو راس: "اليوم ما أقلق لو جاءت دبابة! ".. وواضح إن ذلك يعني شيئا واحداً فقط وهو تلاشي هيبة الدولة على الرغم من كثرة الجند والعتاد وامتيازات القادة ذوي النياشين والعقارات..

الحزب والعسيب

أيا ما كانت التحفظات على جوانب من حكم الحزب الاشتراكي اليمني، غير أنه لا يستطيع أحد أن يجادل حول تمكنه من ضبط الأمن العام في الجنوب، وقد تخلت القبائل هناك عن احتراباتها وثاراتها، ووضع الناس السلاح جانبا، بما في ذلك السلاح الأبيض.. قبل أيام، قال ضابط أمن كبير من الجنوب أنه ملأ "شوالا" كبيرا بالجنابي في منطقة يافع عام 1976. وقد تحدث الضابط بذلك في حضور الشيخ عامر العجي وآخرين. وفي ما عدا شخصيات قليلة، فالملاحظ أن القادة من الجنوب وكبار مثقفيه لم يعودوا إلى لبس الجنابي أبدا، ولعلهم يظهرون قدرا من الاعتزاز بمحاسن تجربة حكم وطنية في الجنوب تم تجاهلها تماما. وهناك من يتحدث عن طمسها. وكثيراً ما يظهر الجنوبيون تبرمهم من المظاهر المسلحة بشتى أنواعها. وأذكر أن برلمانياً ووزيراً سابقاً متميزاً من الحزب الاشتراكي كان يجلس إلى جانبي في اجتماع لجنة التشاور الوطني، وعندما صعد الأستاذ محمد سالم باسندوة إلى المنصة يلقي كلمته وهو يتهادى –عافاه الله– بسبب كبر السن والمرض، علق قائلا: "يبدو أن المجتمع المدني سيتلاشى ولن يتبقى لنا إلا أهل "العسْوَبْ".. ومما يغيض كثيرين من أبناء الجنوب اليوم هو عودة السلاح والحروب والثارات إلى مناطقهم ومعهم كل الحق في ذلك..

توق إلى مستقبل مختلف

هل هذا يشبه الحنين إلى الماضي؟ كلا.. إنه في حقيقة الأمر توق إلى مستقبل مختلف عن الماضي والحاضر.. وتأتي الإشارة إلى الماضي القريب في سياق التأكيد للفاشلين أن بالإمكان أبدع مما كان.. ويكفي أن قبائل أخرى في جزيرة العرب أقاموا دولاً من حولنا يسودها أمن وحزم ونظام، فهل أن اليمن ليست جديرة أو لا تستحق أن تكون ملء السمع والبصر يسودها الأمن والعدل والنظام وحكم القانون الذي يطال الجميع دون تمييز أو تفاوت أو استثناء؟! إن مشكلة الأمن في اليمن لم تكن ترجع إلى ندرة الموارد كما يدعي العاجزون، بل ترجع في حقيقة الأمر إلى غياب الإرادة، وتفشي المحسوبية، وفساد الإدارة، وسوء التدبير، وقصر النظر الذي تراكم عبر السنين، حتى بلغت الأحوال حدا لا يطاق، ومستوى لا يشرف من يحب اليمن ويعزها بحق..

أشعرُ بالإهانة. أحدُهم تسبب في الدوس على كبريائي الشخصي! هذه المرّة سنكتفي، فقط، بسرد نماذج (موديلـس). يمتلك النموذج المتماسِـك قدرة تحليلية وإشـارية عالية. إن التفكيك عبـر الإحالة إلى النموذج سـيمنحنا موثوقية منهجيّة كافية لوضع المعضلة (المسألة اليمنية) في إطارها المرجعي السليم. وفي لحظةٍ ما لن نكون بحاجة ماسّـة لمعرفة من الذي أنشـأ كل هذه الكارثة، إذ إن معرفتنا بكيف نشأت الكارثة سيكون كافياً ليضع القارئ ذو الإصبع البيضاء يده في صدور ذوي السحنات السوداء.

مروان الغفوري
thoyazan@yahoo.com

حيثُ اليمن جثّة بلا هُويّة

قرعة خليجي 20 في صندوق وضّاح

لقد فشـلت اليمـن مؤخراً فـي إدارة احتفالية قُرعة لثمانيـة منتخبات في دورة كروية هي من بين أضعف الدورات الكروية التي لا يؤبه لها كثيراً على الصعيد العالمي. كان مـن المتوقّع أن تثير هـذه الفضيحة، القرعة، قهقهـة عالميّة لـو أن الأمر ارتبط باسـم آخر غير اليمن. تفاعل المشاهدون في الداخل والخارج مع المشـهد بحسبانه واحداً مـن التجليات اليومية للذات اليمنية الراهنة: المعاقة، غيـر القادرة على تحقيق إبهارَ عند أي مسـتوى. لقد أشبعت اليمن أفق التوقّعات، وكانت «عند المستوى المنتظر منها» منذ البدايـة: دورة رياضية صغيرة ستلاقي مصرعها المحتوم في بلد يدور في ساقية الشتات الأزلي!

بيـد أن سـؤالاً منطقياً لا يـزال يضع نفسه في الواجهة: هل هذه الذات المشوهة، العدميـة، العابثـة، الفاشـلة، الجبانـة، المهرّجـة، التـي خضّت الوجـدان اليمني لدرجة أن مغتربين يمنيين في الخليج كتبوا عن أنفسـهم: أصبحنا نخجل من الذهاب إلى عملنا بعد فضيحـة القرعة.. هل هذه الذات الفضائحية هي تلـك الذات اليمنية الحقيقية؟ هل سـقط اليمنيّـون، وبصورة عمليّـة، عن الحصـان إلى قـاع العالم حتـى أنه لم يعـد بمقدورهم أن يجروا عملية عـدّ من (1) إلى (4) فيكررون الرقَم (2) مثل طفلٍ مصاب ببله منغولي؟ (مع اعتذاري للعرق المنغولي، فهـذا مجرّد مصطلح علمي عنصري).

إن سؤالاً كهذا لا بدّ وأن يفرز حزمة من الإجابات، يأتي في مقدمتها سـؤال على شكل جواب عاجل: هل بالإمكان اعتبار حميد شيباني، والعيسي، وعباد نماذج دلاليـة للذات اليمنية الحضاريـة، المفترض فيها وراثة تراكمات حضاريـة وثقافية وأخلاقية، بـل وإمبريالية بالتقييـم العالمي. فيما يتوفّر لدي من السـيرة الذاتية فـإنّ أحداً من هؤلاء لم يـدرس نظرية الحيود لدى آين شـتاين، ولا ما بعد النواة، ونظريات الكوارْك، ولا حتى أبسـط قوانين الديناميكا الحراريّة. دعونا نبسّط الأمر، بأقل قدر من الاسـتفزاز: إن هؤلاء الكبار الخارقين لم يكونوا يوماً ما سـوى أطفالٍ محدودي الذكاء والمواهبِ على نحو يلوّع القلب. إن محدودية الذكاء ليست مبرّراً لقمـع صاحبها ومصـادرة حقوقه، لكـن الأمر يغدو دافعـاً منهجيّاً لحرمانه من القيـادة بصورة غير قابلة للتفـاوض. هذا ما يحدث في كل أمم العالم التي تضع اعتباراً عميقاً لكونها «أمم» جديرةٌ بالتناسل والحضور الفاعل في المسـتقبل. وبالنسـبة لي، فقـد قرأتُ ذاتَ مـرّة: في اللحظـات الفارقة من حياة الشُـعوب يجدرُ أن يتـوارى محدودو الذكاء إلى الصفوف الخلفية، لأن الأمر سيصبح ذا علاقة حاسمة ببقاء هذه الشعوب أو اندثارها، بقدرتها على الإطاحة بالتحديات الشرسة أو وقوعها فريسـة لمفاعيلها. سيصبح الأمرُ حديّاً لدرجة أنـه قد يصيب كبرياء أمّـة ذات تاريخ مجيد في مقتل. مثال: بعد انطلاق مشـروع «قفزة كبـرى للأمام» في الصـين، 1958، بثلاث سـنوات فقـط كانت فضيحة العقول السـطحية التي طرحت هذا المشـروع، بآنئذ، تقـاس بنتيجة رقمية: وفاة 3 ملايين صيني تحت طائلَة الجوع والمرض. كان لا بد من إيقاف المشروع بعد ثلاث سنوات من انطلاقه، ومحاسبة القتلة الوطنيين. ولم تُعد الصين لمثله إلا بعد عشرين عاماً تقريباً حين استكملت صياغة مشـروع نهـوض جديد، بموثوقيـة ومنهجية عاليتين، رسـمته الذات الصينية الخبيرة والجرئية، لا أولئك المتسـلّقون الأغبياء ذوو الثيـاب الأنيقة والعقول البيضاء!

أشـعرُ بالإهانة! أحدُهم تسـبب في الـدوس على كبريائي الشـخصي! كمواطن يمني، أشـعر بالخجل لوجود هذه الجماعة البشريّة في الصدارة، وأعتقد أن صديقي سامي الكاف يشاركني هذا الشعور العميق. كما أظنّ، بجـزم عال، أن هذه النمـاذج هي إفرازات لمصادفات زمنيّةً أو لاً زمنيّة، عاشتها اليمن في لحظات متتابعة من الانهيارات وأن اسـتمرارها في الصدارة لا يعنـي في أبسـط تجليّاته سـوى أن اليمن لا يزال يربـض في حزمة الانهيارات ذاتها؛ إذ إن تعافي اليمن سـيتطلب في أولى خطوات نقاهتـه أنٍ تختفي نماذج العهـد المريض، وهو ما لا يبدو قائمـا حتى الآن. لقد كُرّست هذه النماذج، فيما يبدو، تحت سطوةٍ قوة النار التـي تتخفّى وراء هذه النماذج العارية مبرّئةً نفسـها من دم الذئب والنبي معاً، وتتحرّك إلى المسـتقبل دون رؤية مشـروعية واضحة المعالم. إنها فيما يبدو تتحركٍ بمزاج عفوي طري، لا يتضمن تفكيراً استراتيجياً كفؤاً لمجابهة سؤال المستقبل. فالاحتياج لتفكير استراتيجي سـيجلب أناسـاً آخرين على علاقـة بالمنهجية وعلوم الزمن النوعي الراهن.

ثمّة قوة نار يجدرُ وصفها بأنها هشّـة لكنها شديدة البأس. غير قانونية لكنها تحسبُ نفسها مشروعة. ومن وقـت لآخر تمارس قوة النار هـذه عملياتها الروحانية المخيفة فتقوم بإحضار بشر عاديين، أو أقل من عاديين، ليقفوا في واجهة المشـهد السياسـي أو الإداري كما لـو كانوا بالفعل: وزراء ومدراء ووكلاء. دعونا نقُل: إن الواجهة الإدارية والسياسية في اليمن، منذ عقود ثلاثة، وهي تماثل مسرح العرائس: حيثُ يوجد أفراد متخفّون يحرّكون تلـك الدّمى الزاهية كما لو كانت بالفعل تقول شـيئاً ما، وتتحرّك من تلقاء وجودهـا. يحدثُ مثلاً أن وزير الشـباب والرياضة الراهـن كان قبل أعوام قليلة «واعظـاً» في الأوقاف والإرشـاد. لقد كانت خطبه عن النفاق والتقـوى، ولهجته التكفيريـة الجهادية العنيفة تجاه الخصوم السياسيين في حملة الرئيس الانتخابية تفصح عن خطيب مفوّه لا يقول أشـياء دقيقة ومنهجيّة إلا نـادرا. لا يعلم أحدٌ على وجه اليقين من ذلك الرجل الشرس، في مسرح العرائس الديموقراطي، من أعضاء الجدار الناري الحاكم، الذي ضاق به ذرعاً فقال: خليهِ يروح يلعب كرة أحسـن. وهكذا، أصبح الواعظ وزيراً للرياضة، وللشباب. فلدى السـادة الكبار، أسيادنا يا شباب، اعتقاد راسخ بأن الأدب والفن والرياضة أمورٌ تتعلق بخفّة العقل، لا الرزانـة، وترتبط بصورة جذرية بأولئك الذين لم يحصلوا على تربية ارستقراطية كافية. لذلك أعلنت وسائل الإعلام الرسمية أن السيد الرئيس وقعَ من على ظهر حصانـه وأصيب برضوض خفيفة، بالرغم من أنه سـقَط عن ظهر سيكل بيدال (بسكلتّة). فكّرت النخبة: من العيب أن يشـار إلى البسكلتّة، فهذه مواضيع يمارسُها صغار القوم. إن جهاز الدولة الذي يرى البسـكلتّة عيباً فادحا قرّر أن يسـتضيف بطولة رياضية تنتمي إلى عالـم العيب، كما هو واقع التفكير الجبلي البدائي!

يدير وزارة الشـباب لفيفٌ من الشيوخ. هذه مفارقة تؤكّـد القاعدة في اليمن، حيثُ الشـيءُ يعيش في بطن نقيضـه: الجمهورية تنام وتصحو في أحشـاء الملكيّة. إلـى الآن وأنا أحاول أن أفهم جوابـا، ولو ركيكا، عن سـؤال خانق: من الذي يفعل كل هـذا باليمن، وكيف تسـوّل له نفسُه؟ سؤال ساذج جدّاً يتناقض مع المقدمة التي قالت إن المقالة لن تحفل بالفاعل بل بالفعل المجرّد، ذي الزمـن المائع. أحفظ حديثاً شـريفاً يقول: خذلني الشـيوخ. لو أتيحت لليمن فرصة للحديث لصرخت من أعلى قمّة فيها: خذلني الشيوخ. فوزير الشباب هو في الأساس شيخ، على طريقته. ويمر تحت لوائه الجهوري لفيفٌ لا حدود له من الشـيوخ (مما قـلّ منه أو أكثر، نصيباً مفروضاً)! وبالرغم من أنهم جميعاً شـيوخ، من المتوقّع أن تتشابه منطلقاتهم الذهنية والنفسية، إلا أنهم يديرون وزارة الشباب والرياضة على قاعدة: كل مغنّي وليـه موال! وآه يا عيني، يـا عيني على آه، قصة عرب أقدمينا! ربنا يدّيك طولة العمر يا عمّنا أبو النجّوم، إنت والخال الأبنودي!

قبل أشهر قليلة احتفل مجلس التضامن اليمني في صنعـاء. بلغ عدد أعضائه 2500 شـيخ. يُقال – وما يـوم حليمةٍ بسـر– إنهم يتضامنون لأجـل اليمن على نفقة السعودية. تدفع السعودية لهذا المجلس في العام الواحد ما يعادل تكلفة إنشاء 12 جامعة عالية الجودة. لا توجد إحصائية رسمية حول عدد المشائخ في اليمن، لكن الآكد أنهم يشـكلون تكتلا ضخماً بمسـتطاع أي فرد فيه أن يـراوغ القوانين والإجـراءات (الضرائب، الجمارك، المخالفـات المرورية، التعيينـات، البعثات.. إلخ) بمنتهى السـيولة واليُسر، دون أن تعتبر مثل هذه المراوغات سـلوكا بدائيا هادماً للعُمـران، بتعبير ابن خلدون. ينتج عن هذه المرواغة سـنويّاً عدد قياسي من الارتجاجات كفيلة بإعطاء صـورة جغرافية عن اليمن بوصفهـا بقعة من السـديم الأرضي اللـيّن. في هذه البقعة المائعة، شـديدة العتامة، مـن المتوقع أن تجري بطولة كروية ارستقراطية. تساءلت صحيفة خليجية قبل فترة: هل سيكون على اللاعبين الخليجين أن ينزلوا إلى المعلـب وهم يرتدون الدروع الواقية من الرصاص؟ عن موقفي الشخصي: لا أعتقد في الأساس أن هناك لاعباً خليجياً يسـتأهل عناء المتابعة، وأتصوّر أنهم لهذا السـبب فقط سيكونون بمأمـن من الرصـاص، إذ إن ملايين أهل بلدي يشـاركونني الاعتقاد ذاتـه. فهُناك مـن يعتقد أكثر من ذلك، أن جملة «اللاعب الخليجـي» ا تزال حتى هذه السـاعة غير ذات موضوع.

دعونـا نمر علـى نماذج أخـرى ذات صلّة سـيميولوجية: اعتقـل الأمن القومي الصحفي المتخصص في شؤون الجماعات الإرهابيـة عبد الإله حيدر، للمـرة الثانية. أصدرت نقابة الصحفيين بياناً بليغاً يوازي في بلاغته ذلك البيان الذي أصدرته النقابة ذاتها قبل شـهرين لتصف السيد الرئيس بأنه حامي الحريّـات الصحفيّة في اليمن. بيانات أخـرى ضربت حائط الصمت، ولم ينتـج عن هـذه الضوضاء سـوى صمت مطبـق. فجأة، اجتمع رئيـس جهاز الأمن القومي بمشـائخ أرحب، العمق السـلالي للصحفي المختطف، ووعدهـم خيراً! كان المشـهد كوميديّاً ينتمي إلى النوع الأسود من الكوميديا: حين يكون عليك أن تضحك كثيـراً حتى تنفجـر باكياً. يـروي صديقٌ مقرّب من الجماعة الفائقة عن مسـؤول كبير قوله: من كانت له قبيلة فليسـقِها، فهي الضامن الوحيد للحياة في هذا المكان المظلم من العالم. طبعاً لا يمكن أن يكون هذا المسـؤول الكبير قد قال النـص باللغة ذاتها، وإلا لما أصبح مسـؤولاً وكبيراً أيضـاً، بل بالمعنى الحرفي المحض.

أشـعرُ بالإهانة. أحدُهم تسـبب فـي الدوس على كبريائي الشـخصي! موقف جهـاز الأمن القومي من قبائـل أرحب يماثل موقف السـيد الرئيـس من قبائل مأربٍ قبل سـنوات معدودة. فبعـد أن رفعت الحكومة جزءاً من الدعم عن المشـتقات النفطية ماجت اليمن من كل أطرافها، وأصدرت القوى السياسـية والاجتماعية بيانـات واعية تحـذّر من التكلفـة الاجتماعية الباهظة لإصلاحات اقتصادية غير مدروسة بشكل كلّي. ذهبت كل تلـك النداءات مع الرّيح إلـى أن قامت قبائل مأرب باحتجاز شاحنات شركة صافر. في تلك الساعة نشرت وسـائل الإعلام الرسـمية خبراً بهذا النص: الرئيس يجتمع مع مشائخ مأرب لتدارس أوضاع «اليمن!»!

بهذه الصورة يكرّس غياب اليمن عن اليمن، وموتها الإكلينيكـي فـي ثياب تاريخهـا المجيـد. ولأنها بلدٌ ارتخت على نحو مريع، فقد أفسـحت فراغات كبيرة لقليلـي الخبرة، وأنصاف المتعلّمين، وفشـلة المدارس والجامعات، وخصوم الشهائد العلمية، وحملة البنادق. قادها هؤلاء العُميان من موتٍ سـريري إلى تعفّنها في صندوق وضّاح اليمن، بتعبيرِ البردّوني، حتى مات في حشاها الفنّ والطرب. إذ ما أسرع ما يأتي وقتٌ ترتكبِ فيه هذه النخبة الغريبة فضائح صالحة للتسويق عالميّاً. يتعاظم المشهد حتى يبلغ صورته القصوى: استعانت الحكومة اليمنية بشـركة استشـارية أجنبية لتخطط لمجلس الوزراء، ورئاسـة الجمهورية، وللّجنة التنفيذية المسـؤولة عن الأولويات العشـر. لقد بدا واضحاً أن الجمهوريـة اليمنية، وبعد نصف قـرن من الثورة، لم تسـتطع أن تنتج جماعة بشـرية احترافية بمقدورها أن تخطط على نحو اسـتراتيجي عميق ومنهجي ليمن المسـتقبل الذي لا ينبغـي أن يكون مجرد قبر يقع في قـاع الجزيرة العربيّة. لكن: هل صحيح أن وجود هذه الشـركة يؤكد عدم كفاية وكفائيـة العقل اليمني على طرح مقترحات على سـبيل: توليـد الطاقة الكهربائية بالفحم؟.. لهذا السـؤال حديثٌ آخر. أما ما أريد قوله الآن فليس أكثر من هذه الجملة الثقيلة: أشعرُ بالإهانة القاسية، ولن أقبل أي اعتذار!